ريهام محمد حسن
مجموعة قصصية
الرمق الأخير
تصميم سارة أشرف

الرمق الأخير

الرمق الأخير

ريهام محمد حسن

(١)

مِن خلفِ الأضواء

كنا نسير معًا أيامًا وليالي، نتجول في الطرقاتِ أملًا، حبًا في الحياة، وألمًا أيضًا، أيمكن لأننا لا نملك أي شيء في تلك الحياة سوى بعض المشاعر، وإن كانت متناقضة، وإن كانت لا معنى لها ولا لماهيتها؛ حتى إن لم تكن متبادلة، حتى وإن ظلت بداخلك وحدك.

أتعرف معنى السير بلا وجهة وهدف؟

كنا هكذا نجوب الطرقات بلا توقف، نخشى التوقف؛ لأننا لا نعرف إلى أين نتجه، حاولت عبثًا أن أجد ملاذًا ولكن لا، كل الأماكن كنا نتركها، نحن نهرب منها وهي تهرب منا، هل لأننا تركنا أوطاننا وأعشاشنا الأولى، أم لأننا تركنا قلوبنا هناك، في مكاننا الأول؟.

أحيانًا أتمنى أن تنتهي الرحلة وأن نجد الوِجهة، ولكن لا لم نجد ذلك المكان وهو لم يجدنا، الأيام تمضي ونحن نمضي معها، والحاصل أن عمرنا يركض في اتجاه بلا عودة.

هل كان عثمان يعرف هذا عندما قررنا الرحيل، هل كان الرحيل قرارًا من البداية أم أننا جُبرنا؟

أحيانًا أقع في منتصف الطريق وأبقى هكذا مثل ورقة فارغة ملقاة تتطاير بفعل الهواء، - الفرق بيننا أنني لا أتطاير - لم يستوعب عثمان أنني لست بجانبه سوى بعد فترة، يعود إليَّ ويحثني على الحركة، أتذمر بقولي.. أننا نملك الوقت، كل الوقت لنا لا ينتظرنا أحد ولا أي مكان، وليست هناك فرصة ستضيع منا إن تباطأنا، وكأن لهذا السير نهاية، ربما مرت سنوات ونحن في الطُرقات مشردين بلا مأوى.

يقول عثمان أن لا بأس.. حالنا هكذا أفضل، وأن الشوارع حانية علينا أكثر من تلك الأماكن التي كانت لنا.

أحيانًا لا أفهمك يا عثمان، ولكن على كل حال أنا أتبعه، أتبعه مثل ظله ولا أفارقه، يقول لي دائمًا أنني هكذا منذ أول خطوة لي في الحياة، أنني أسير خلفه هكذا دائمًا؛ لهذا إن كان الرحيل قرارًا فأنا اخترته؛ لأنني دائمًا وأبدًا أختارك يا عثمان.

لست أدري ما النهاية وهل الضياع في الأماكن بين أناس لا نعرفها أفضل اختيار، هل هكذا كتبت لنا الحياة، أن نُعاني دائمًا من شدتها وقسوة أياديها علينا.

كلما رآني عثمان أبكي يصرخ بي أن أتوقف.. وهو محق، لماذا أبكي إن كان هو مَن يأكل أي ضرب نتعرض له، لماذا أبكي وهو لم يتركني أتضور جوعًا، لم تشبع بطوننا قبلًا، ولكن نحن اعتدنا تلك الحياة جوعى.

كل يوم نصعد إلى أعلى قمة في المكان ونبيت ليلتنا هناك.. حيث لا مكان للكلاب التي تنبح، ولا عُصيّ البشر، نشاهد الأضواء البعيدة، أقول له:

- هل سنصل إلى ما خلف الأضواء؟

يبعثر خصلات شعري ويقول:

- سنصل يا علي.

ينام عثمان سريعًا؛ فجسده منهك طوال اليوم نركض، يبحث عن طعامنا، يتلقى أي أذى بدلًا مِني، هو يفعل هذا دائمًا.

أما أنا تظل نظراتي مُعلقة على الأضواءِ أتأملها، أقول.. هل سنظل من خلف الأضواءِ أم أننا سنصل، أُفَرِّق نظراتي بين الأضواء وعلى وجه عثمان، أحفظ تفاصيله وكأنني أخبئها في ذاكرتي خوفًا من الفِراق، أخاف كثيرًا أن تفرقنا الطُرقات الطويلة قبل أن نصل، أن نظل من خلف الأضواء، لا مشكلة عندي أن نظل.. ولكن المهم أن نظل معًا.

(٢)

الصمت سيدُ الأصوات

كاذب.. مُحالٌ أن تكون لغة الصمتُ أفضل، أن تَذبح صوتك وتُصبح أبكمًا بإرادتك، أن تَسجن صوتُك الحُر وتأسرهُ، لقد خلقه الله حُرًا، لماذا تكتمه؟

أغلقت صوت التسجيل وعُدت لأجلس مكاني، وظل السؤال معلقًا في الهواءِ بلا جواب، لماذا أكتم صوتي، لماذا أُفضل الصمت - بعيدًا عن كونه يُشعرني بالراحة النفسية - يُبعد عني الكثير من اللغط، وكم أكون ساكنًا هادئ البال بعيدًا عن كثرة الأحاديث.

أن تكون رجلًا هادئًا شيء معتاد ومقبول، ولكن حينما تختار الصمت عن كل شيء وكأنك ابتلعت لسانك، وكأن الصمت شريعة اعتنقتها، أحد أصدقائي كان يقول لي تفضيلك للهدوء عظيم، ولكن.. إن كانت الأصوات العالية مزعجة، والضجيج لا يناسب

البعض - وربما البعض هم الأغلبية -؛ فالصمت ليس خيارًا أبدًا، كيف لأحدٍ أن يختار ذبح حنجرتهُ وهو حي؟

وظل سؤاله بلا إجابة أيضًا، شعرت حينها أن رأسي تُحلق في الهواء وعقلي لا يأمرني بشيء سوى الصمت، الهدوء والسكينة وأن لا أُجيب بشيء.. أي شيء.

أحيانًا أشعر أنني إنسان سخيف، - في الحقيقة قيل لي هذا من أحد المقربين قبلًا - يشعرون بمدى سخافتي لأنني صامت؛ ولأنني لا أُجيب سوى ببعض الكلمات البسيطة، إن لم تكن إجابتي إيماءة رأس.

يظن مَن يتعامل معي أنني أفعل هذا عمدًا، أنني لا أُجيد التحدث أو لا أرغب به معهم تحديدًا، حتى وإن كنت أُفضل الصمت وكثيرًا، لكنني لا أتحدث لأن عقلي لا يصمت؛ لأن الضجيج برأسي أعلى من أصواتهم جميعًا، وأن حديثهم مهما كان مهم عقلي يُنحيه جانبًا من كثرة ازدحامه بأشياء لن يستوعبها أحد، حتى أنا المصاب بمَصابي هذا لا أستوعب ما في رأسي.

أحيانًا أشعر بالألم الشديد يَدق رأسي إن كَثر حديث أحدهم بجانبي، أما الألم الأصعب الذي ضربت رأسي بالحائط بسببه من قبل كان إثر صوتي أنا، أمرت عقلي وكثيرًا أن يصمت لكنه لم يصمت، حتى بعد ما ضربته لأقرب حائط، هدأ الصوت قليلًا نعم، ولكن سُرعان ما خرج حديثًا جانبيًا يُخبرني عن مدى غبائي، وأنني الوحيد الذي يتألم الآن بعد ما ضربت رأسي، وأن صوت عقلي لن يصمت أيضًا بتلك الطريقة، وأن الألم أصبح ألمين؛ ماديًا ومعنويًا.

الآن أيضًا أضغط على رأسي بكلتا يدي في محاولة يائسة أن تكف عن الحديث.

اهتز الهاتف فعلمت أنها تنتظر إجابتي، نظرت إلى الرسالة التي أرسلتها توًا استكمالًا لحديثها في التسجيل.. "لا تصمت، لا تنتظر الوقت المناسب؛ فقد لا يأتي هذا الوقت مطلقًا، وحينها لن تمتلك حرية اختيار الحديث أو الصمت، حينها لن تجد مَن ينتظر أن تكف عن صمتك وتخرج صوتك المكتوم، لن تجد أحد صدقني".

حينها فكر عقلي لدقائق طالت إلى نصف ساعة كاملة، هل حقًا صمتي يؤذي الآخرين بهذا الشكل؟

وجدتني أوجه السؤال لها، ورغم سخافتي وعدم ردي السريع عليها - ولأنها فتاة تهتم بشيء كهذا - لكنها أجابت عليَّ سريعًا، وجدتها تقول:

"صراحتي الآن ربما تُوجعك ولكنك مؤذي بشكلٍ لا تتخيله حتى يا سامر، أنت لا تشعر بما تفعله بمَن أمامك بصمتك وبرودة أعصابك، ولكن في نهاية الأمر أكثر مَن يتأذى هو أنت، تخسر كل مَن حولك دون أن تشعر، وبدون حتى أن تعرف السبب والعِلة، أعلم أن وراء صمتك شيئًا أكبر من تفضيلك له، وأعي جيدًا أنك إنسان جيد لا يود أن يخسر كل مَن حوله؛ لقد سألتني وأنا أجبتك بما لديّ، وما أود قوله لك مِن شخص يُحبك لا تترك نفسك للصمت يلتهمك، لا تترك رأسك لضجيجها الداخلي، ربما إن شغلتها بالضجيج حولك تهدأ علتك، أتمنى لك شفاءً من كل قلبي".

قرأت رسائلها كلها ولم أعرف بماذا أجيب، ما توصلت له أن بي عِلة، عِلة داخل رأسي لا يُداويها طبيب ولا دواء، ربما إن استمعت لنصيحتها أجد دوائي، وربما حينها يكون هلاكي، كيف لإنسان أن يسمع صوتين ويتحمل حديثهما في آنٍ واحد؟

هل أستطيع تحمل عقلي وهو يتحدث ولساني أيضًا؟

أغلقت الهاتف وكهرباء المنزل، صعدت إلى سطح منزلنا في ظلامٍ دامس، السماء فوقي والفراغ مِن حولي، لا صوت هنا سوى صوت الرياح والصمت الذي يظنه الرائي من بعيد، أغمضت عيني بعدما تمددت على الأرضية وتركت رأسي ولعنتها بعلتها، إن كنت عليلًا فالصمت هو دوائي، وإن كان الصمت يجعلني أخسر مَن حولي؛ ولأن صوتي وحديثي مهم بالنسبة لهم، فالصمت هو سيد الأصوات بالنسبة لي.

بعد ساعات من أحاديث عشوائية لعقلي، رن صوتها في عقلي وهو يقول: "من شخص يُحبك"، شعرت بأن أجراس المدينة تدق رأسي،

ركضت لأسفل سريعًا كي أحادثها، خفت كثيرًا من احتمال عدم إجابتها، لكن جاءني صوتها الناعس يسألني إن كان هناك شيء، فأجبتها بأنفاسٍ متلاحقة:

- أجل هناك شيء مهم، ألم تقولي أن بي عِلة؟

همهمت بنعم بصوتٍ خافت؛ فقلت سريعًا:

- لقد وجدت الحل.

استيقظ صوتها وهي تقول:

- حقًا، هل وجدت شفائك؟

قلت بحماسةٍ:

- هل يمكننا أن نتقابل؟

أجابت مستنكرة:

- الآن؟

قلت وأنا أهبط الدرج سريعًا:

- دقائق معدودة يا سالِمَة، أنا في طريقي.

آخر ما سمعته قبل صوت تنفسي العالي كان صخب ضحكاتها، وجدتها تنتظر أسفل بنايتها تجمع ذراعيها حولها كي تدفئ، عندما وصلت إليها قالت بتذمر:

- أخبرني أيها المجنون ما هو شفائك؟

قلت دون تفكير، ولكن ببطءٍ درامي:

- أنتِ شفائي.

ملامحها المتوترة وضيق عينيها أصابوني في مقتل، استرسلت في حديثي:

- بينما كنت أختار نفسي والصمت الذي حسبته دواءً، وجدت ضوء شفائك ينبثق ينير دربي، يُهدئ ضوضاء رأسي، أنتِ الشفاء الذي

بحثت عنه طويلًا، هذه المرة اخترت الحديث ولم أصمت، لأنكِ يا سالمِة لا تستحقين عناءً، ولأنك انتظرتِ بصبرٍ وإصرار دون أن تسأمي، لا أعلم حقيقة مشاعرك نحوي، ولكني عليلٌ وأنتِ الشفاء، أتقبلين؟

ظلت صامتة لوقتٍ طويل، أنا مَن اعتدت الصمت، شعرت بثقل الوقت وتباطئه، أومأت برأسها وقالت كلماتٍ قليلة تمتحن صبري:

- أنت عليلٌ نعم، ولكن..

صمتت أطول من ذي قبل، ثم قالت:

- ولكنَ قلبي عليلٌ بك منذ أمدٍ بعيد، هل ستكون شفائه؟

لو كان للسعادةِ صوت لسمع العالم أجمع صوت قلبي وسعادته، أومأت إيجابًا وعينانا تضحك، وقلوبنا تُرفرف كأن لها أجنحة.

"ضحكتك تقلب المدينة رأسًا على عقب

أنت اضحك وأنا سأعيد بناء المدينة".

(٣)

قتلهم شرفي

أربع ساعات وخمسةَ عشر دقيقة وأنا على جَلستي تِلك، جفت الِدماء على نصلِ السِكينِ كما جَفت على يداي، تَزداد رُقعة الدِماء مِن حولي، لقد هَدأ جسدي واختفت تلك الرجفة التي اِعترتني عندما غرزتُ السِكين في قلبهِ، أمسكت بهاتفي وكلمات أمي الأخيرة تتردد على مسامعي، ها قد ظهرت الشبكة الخلوية للهاتفِ.. بعدما أسفر عن غيابها ثلاث جُثث مُقابِل شرف فتاة.

لم أحفظ رقم الشرطةِ مِن قبل رغم سهولته، لكنني دائمًا ما كُنت أردد: "ما حاجتي بهِ"؛ حتى الآن لا أعلم حقًا ما حاجتي بهِ، هل سيأتون سريعًا أم أن أخباري انقطعت إلى هذا الحد عن العالمِ أجمع!

ها قد وجدت رقم الطوارئ بعد بحثٍ قصير على هاتفي، لا أحد يُجيب.. لكن إن عَلِموا أن في الأمر ثلاث جُثث ربما لأجابوا.

وَجهت نظري للحافلة وأنا أَعاود الاِتصال.. عُذرًا أيها الشاب لم أجمعك معهم؛ فأنت لست مهم بالنسبةِ إليهم، لن يحققوا بشأنِ موتك الطبيعي كثيرًا، لن يحزن عليكَ أحد سِوى أهلك، كما فعل صديقك المسكين، لم يَكن يعلم أنه رفيقك حتى الموتِ حقًا، لقد كان يُحبك بِصدق، بكى عليكَ كثيرًا حين اكتشف موتك، وبكى أكثر حينما تذكر نصيحته لكَ قبل أن نتحرك في حافلةِ الموت.

لقد آتني الرد أخيرًا بعد المرة الثالثة، أين أنتم يا رِفاق.

أردفت قائلة:

- حسنًا اِسمعوني جيدًا الآن، أُحادثكم مِن أجل جريمةٍ ارتكُبت مُنذ أربع ساعات وعشرون دقيقة على الأقل، إنهم ثلاث جُثث.. اِثنين قتلهم شرفي، والثالث طعنته بيدي، وفي كُل الأحوال القاتل الأساسي أنا وشرفي؛ سأقص عليك سريعًا ما حدث حتى تأتي.. أم أنك سَتُغلِق الآن!

لن تعرف مكاننا إن أغلقت، أعتقد أنك ستحدده خِلال مكالمتنا، أنا لا أحبذ الصمت؛ لذلك اِسمعني..

لقد بدأ الأمر حينما كنت في الطريق أعود مِن الجامعة، تنبيهات أمي لي بأن أنتبه وأنا في الطريقِ لنفسي تَقرع في أذني كأنها تُحادثني للحظة، وكمثل باقي الأيام ركبت الحافلة وسطِ أُناس لا أعرفهم ولا أعرف نواياهم، أغفو حتى أصل، ورُبما أَشرد وأنا أنظرُ للطريقِ وحسب، وفي وسطِ شُرودي اِخترق أذني صوت أحدهم يقول لصاحبهِ:

"كم مرة أقول لكَ لا تضع سماعات الأذن على الأغاني ونحن في الطريق، لا نعلم إن كُنا سنصل أم لا.. أخاف الموت على معصية، أرجوك أغلقها."

اِشتد الحوار بينهما ولا أعرف على ماذا انتهى، لكن اِتضح لي في النهاية عندما كان يبكيه صديقه أنه بالفعلِ مات عليها، كان آخر ما سمعه في الدنيا أغنيات!

أكملت الطريق وأنا أنظر إليه، لم أنتبه إلا عِند توقفنا الأخير وقد طال.. اِنتبهت إلى ما حولي فلم أجد سِوى الفراغ، شابان نائمان.. ورُجلٌ مُريب وسائق أظنهُ مُتخدر، اِتضح لي أنه لم يبقَ سِوانا، ارتعشت أوصالي ودَب الرُعب في قلبي حينما قال السائق أن الحافلة تَعطلت ولا توجد أية حلول سِوى الانتظار؛ حتى عِندما اقترح الرجل المُريب أن يتصل بأحدهم لم نجد أي شبكة، اِكتمل المشهد حينما لم يمر علينا أي إنسان، وكأننا انفصلنا عن الدُنيا، التصقت في مقعدي وأنا أتخيل أبشع السيناريوهات، وصوت عويل أمي يطن في أذنيَّ، بعد مرور أول الساعات طلب مِنا السائق أن نترجل مِن الحافلة، لا أعلم لماذا، ولكن هكذا قال.

حالته وحديثه بعد تدخينه الكثير مِن التبغِ؛ الذي لا أظنه تبغًا عاديًا جعلني تيقنت بأنها النهاية، لم يتبقَ سِوى النائمان ولم يطلب منهم القِيام مِن الأساس، وقفت بعيدًا عنهم.. لم أنتبه لِمَ يحدث إلا عندما شَب

بينهما شِجارًا لا أعرف لِمَ قد بدأ، استيقظ على إثرِه أحد الشابين، بالطبع لم يفهم أي شيء إلا أنه قفز بينهم يحاول تهدئة الموقف..

لم أفهم ما الذي يحدث إلا عِندما وجدت الرجل المُريب يبتعد عنهما، ثم أخرج سلاحًا أبيضًا كان يُخبئه وقد كان يقترب مِني، تجمَّدت في موضعي إثر الصدمة، وجدته يوليني ظهرهُ ثم صرخ قائلًا:

"اركضي يا ابنتي، اهربي وسأحميكِ بدمي."

ثم أطلق سَبة بذيئة وهو يوجه كلامهُ للسائِق قائلًا:

"رُبما أقتل أحدهم أو أسرقُه، لكنني رجل يا.." (وقد سَبه مرةً أخرى)

إلى هُنا وقد بدأت أفوق مِن صدمتي وأفهم ما الذي يجري، وقبل أن أركض جذب الرجل يدي وقد وضع بها سكينًا غير التي بيده، وقبل أن أركض هذه المرة أيضًا.. كان السائق ممسكًا بالشابِ النائم في الحافلة، وقد وضع مِديته على رقبته وهو يقول:

"إن تحركتِ خطوة واحدة سأقتله!"

صرخ الرجل بي أن أركض وألا ألتفت، لكني لم أستطع.. جُمدت قدماي في هذه اللحظة، لا أعرف كيف نطقت حينها، ولكن كان يتوجب عليَّ أن أرحمه، صرخت في السائق وقد خارت قواي:

"إنه ميت إنه ميت، ليس نائمًا.. لقد مات!"

ركض صديقه ناحيته وهو لا يعبأ لذاك المُتخدر، أخذه من بين يديه وقد كان حديثي شتَّت انتباههُ قليلًا، بدأ يتفحصه وهو يرتجف، اقترب مِنه الرجل حتى يتأكدوا مِن صِحة حديثي.. وقد كان، مرَّ الوقت ثقيلًا جدًا، وكانت اللحظات صعبة مريرة، لم أكن أعرف بأن القادم أصعب وأشد، كان الشاب في حالة يُرثى لها، أما الرجل فكان صامتًا غارقًا في هالته الغريبة، خشيت أن أنظر ناحية السائق، لكنني اختلست إليه بعض النظرات وجدته في عالمٍ آخر، ظننت أنه اتعظ مما حدث؛ لذلك جلست في مكاني وأنا أشدد على السِكينِ في يدي، أتوسل إلى الله بالأدعيةِ أن ننجو..

وفجأةً وجدت السائق أمامي، كان ينظر إليَّ بنظرات حيوانية.. مَد يده ناحيته فركضت مِن مكاني، جذبني مِن حجابي.. وهُنا قد لحق الرجل بالأمرِ وبدأ بالتدخل، ظلت المناوشات بينهم وأنا أحاول الهرب، كنت أركض مرة وأتعثر ألف، شعرت أنني ركضت لألف مِيل في حين أنني لم أتحرك سِوى لخطوات..

لم أنظر خلفي سِوى عندما سمعت صوته البغيض وهو يقول:

"ستلحق برفيقك يا..." (كانت سبة بذيئة أطلقها السائق)

نظرت.. فوجدت الرجل مُسطحًا على الأرض يلتقط أنفاسهُ بصعوبة، والسائق يطعن الشاب حتى أنهى حياته، عَلمت أنهُ لا مجال للهرب، انتظرت النهاية وأنا أدعو الله أن تنتهي حياتي قبل أن أعيش هذا الألم، توجه السائق ناحية الرجل حتى أنهى حياته هو الآخر، اقترب مِني ويداه مُلطخة بدِماءٍ أُسيلت من أجل شرفي!

ما إن اقترب وبدأ في اِستباحة ما ليس لَهُ ركضت ناحية الحافلة في محاولة فاشلة للنجاة، لكنه ثار جنونه واقترب أكثر وعينيه لا تَرى شيئًا سِوى الحصول على ما يُريد، وجدت نفسي أغرز السِكين بكل ما تبقى بي مِن قوة في أيسره مُباشرةً، لم أكتفِ بطعنة واحدة، بل طعنته حتى جُرحت يداي وقد تشوه الجزء الأيسر الذي كان بِهِ قلبه.

لقد قتلته.. الوحيد الذي قتلته بسكيني هذه؛ كما قتلت الجميع بشرفي، أعرف أنكم أغلقتم الخط من البداية، ومن الممكن ألا تأتوا، ولكنني قد قررت القرار الأخير..

الرَمقِ الأخير لي في هذه الدنيا، سمعت أصواتهم.. إنهم قادمون، لكنهم لن يجدوا ثلاث جُثث، بل إنهم ألف.. ثلاثة قتلتهم، والباقي أنا.

(٤)

عزيزٌ على قلبي مطعمٌ بالخطايا

وضع يده على قلبي، ارتعش جسدي بأكمله، أبعد يده سريعًا عندما ارتعشت، أظنه خائف.

لا يُسمع سوى صوت أنفاسنا الداخلة والخارجة، وبعض شهقات الوجع التي تخرج مِني، أود أن يختفي من أمامي.. لا أُريده، وفي ذات الوقت أخشى فقده، أود إفلاته، ولكن يدي الباردة ترتجف، أُحِب صوته ولكن أخشى حديثه.. إن تحدث سيخبرني؛ سيعلمني بكل الخطايا التي أهرب منها، أقول يا ليتني لم أعلم، لو أنني لا أعلم!

خرج صوته ضعيفًا يقول:

- هل أرحل؟

هل يسألني حقًا؟

أيود إجابة على هذا السؤال، أود بقائه ورحيله معًا، كيف أفعلها وأقولها؟

لكنه ردد سؤاله بذات الضعف:

- هل أرحل يا ساجدة؟

لا تنطقه الآن، لا تنطق أحرف اسمي، كيف أتركك، وأنا التي لم تسمع اسمها بهذا الجمال من قبل سوى منك، لم أرَ نفسي جميلة بهذا القدر سوى خلال عينيك، يا الله ماذا أفعل.. أيشفع الحب خطاياك؟

" أيمسح الحب الآثام يا يعقوب؟" لا يمسحها، لا أتقبلها ولا يتقبل قلبي، أنا لا أتقبل تركك أيضًا ولا أدري كيف أتقبل عدم وجودك، لا أستطيع التعامل معك وكأنني لا أعرف شيء.

لم يسكت صوتك هذه المرة وقلت:

- أجيبِ يا ساجدة لا تتركي قلبي هكذا شريدًا.

قلبينا الآن شريدين لا يدريان أي إثمٍ اقترفا.

أمسكت يده التي ترتجف مثل قلبي، تأملته كثيرًا بأعيني الدامعة، تأملت نظرته التي أُحِب، عينيه دائمًا بها شعاع دافئ يُصيب قلبي، لمست وجهه فنزلت دموعه الساخنة على يدي، بكينا سويًا وكثيرًا، لو أن الزمن توقف هُنا في تلك اللحظة، عيني تتأمله وتتأمل كل إنشٍ به، أتأمل الندبة على جبينه مكان سقوطه وهو طفل، أتأمل خصلات شعره الذي داعبته كثيرًا بيدي حتى نَعِس، أتأمل لحيته وأنظر إلى جوانب وجهه الذي أحفظه، أتأمل ابتسامته، ولكن لا أجدها.

عانقته أخيرًا، عِناق طويل بقدر اشتياقي له قبل لقائنا، بقدر حُبي له، بقدر ابتعادنا القادم، عِناق كانت به أصوات الشهقات العالية لنا.

يتمسك بي وكأنه يعلم، وكأنه يقرأ ما في عقلي، يعلم أنه عِناق أخير، يعلم أنه عزيز قلبي وإن كان مُطعمًا بالخطايا.

لم أكن أود فَصل العِناق، لِمَ على المتحابين أن ينفصلوا، ألا يمكن لنا أن نُدفن في أحضان بعضنا الآخر، أليس هو نصفي الذي خُلق لي؟، لا أستطيع تركك يا نصفي.. كنت كُلي دائمًا.

ابتعدت أهندم ملابسي، تحركت بعيدًا فأمسك يدي، جذبني نحوه.

عينيه منهكة لكن مُصابٌ قلبي بها، وضع كفي على لحيته وقال:

- لا تتركيني، لا أقوى رحيلًا ولا أستطيع فُراقًا.

هززت رأسي بأن لا، اِشتدت قبضته وزاد نحيبه، كم أن بُكاء الرجل عزيز!، ما بالي أنا أراه يبكي هكذا وأنا التي لا تتحمل أن يُشاك بشوكة؟.

قال:

- والله يا ساجدة قلبي معلقٌ بقلبكِ، أنفاسي تَضيق بعيدًا عنكِ يا رَوحي، أنتِ رَوحي، سامحيني.. لا تتركيني.

عانقته، إن كان الحب لا يمسح الآثام.. قلبي قد مسح، قلبي لا يتركه، لا يرفضه، قلبي وكُلي معه.

(٥)

الخوف وأشياء أخرى

أكان مِن الطبيعي أن يتركني هكذا، بين الرِعاع في الأودية الجافة، في أراضٍ قاحلة، أشعة الشمس تَحرق جلدي، جسدي الهزيل يهتز ألمًا في الليالي الباردة، عندما كنا ننام جميعًا أكوام من اللحمِ مُتراصين، الأصح قول مَكومين فوق بعضنا البعض، كنا نختنق مِن كثرة أنفاسنا ونشعر بالحرارة، الآن في ذلك الفراغ الواسع لا قيمة لكثرة العدد، ولكن بمفردي هُنا أعدو، أجثو، أتمدد على الرمال، أقف على رأسي حتى، ربما أصرخ وأنا أقلد تلك الذئاب التي تعوي، بمفردي كأن الحياة كلها لي، الأيام الأولى كانت صعبة.. ربما خوفًا، وربما أشياءً أخرى.

فكرة أنه قد يتم التخلي عني في أي لحظةٍ أفزعتني، كُنا كل ليلة ننتظر وأعيننا تُحملق في الظلام، ننتظر لنرى مَن مِنا سيسحب ويُترك في العراءِ.

صرخات رِفاقنا كانت تُرعبنا، نشعر بالخوفِ المرير يتسلل أجوافنا الفارغة، كان قلبي يسقط في معدتي عندما أراه وأرى يده الضخمة وهي تَجذب أحدنا، كنت أخشى الفِراق، كالقطيعِ كنا وكنت أشعر أنني إن تَركت القطيع سيلتهمني الذئب.

في يومٍ ما نظرت إلى كارم وهمست له:

- أنا خائف.

سَّخر مِني بطريقته البذيئة، ثم قال:

- لا تكن طفلًا يا هذا، لا داعي للخوفِ هنا.

لِمَ لا أكون طفلًا إن كنت طفلًا حقًا، مُجرد طفل، ألم يَجدر بهِ أن يَسألني لِمَ الخوف، أو يسألني حتى مما أخاف، وأنا أيضًا كان يحق لي أن أطرح أسئلة أخرى؛ فسألته:

- حتى وإن كنت ستُسحب الآن، ألن تخاف؟

ضَحك ملئ شدقيه وقال:

- إنني أنتظر تلك اللحظة يا أحمق.

عيناي قد وسعت وهي تُحاول النظر إليه، قلت بذهول قد تَلبسني:

- أنت جاد!

أومأ برأسه لأسفل؛ فسألته:

- ألا تَخاف من الوحدة، من أصوات الذئاب، مَن ينفصل عن القطيع يَموت يا كارم!

ظل صامتًا لفترةٍ وكأنه لا يَود الإجابة، ثم قال في النهاية:

- مَن ينفصل عن قطيعٍ كهذا يكون حُر لا يَشعر بالخوفِ يا رائد، وأنت لن تَشعر بالخوف، عِدني بهذا.

رغم قساوته وشراسته الدائمة لمحت بعينيه حنان نحوي، ربما لأنني كنت الأصغر هنا وكنت دائم التمسح به كالقطةِ الصغيرة.

ابتسمت له وهمست:

- أعدك، لن أخاف.

حينها ابتسم، كنت أول مرة أرى ابتسامته وآخر مرة أرى وجهه.

أقول يا ليتني سألته لمَ يجمعنا هنا وفي النهاية يَتركنا، كارم كان أكبرنا والجميع لم يتوقع أن يُترك، كانوا يظنونه باقٍ هنا إلى الأبد؛ حتى أنا كنت أظن هذا، لا أعتقد أن أحدًا مِنا يعرف إجابة لهذا، ولا أعرف هل التركِ هكذا في العراءِ أفضل أم ذلك المكان أرحم من نارٍ لا نعلمها.

كل ليلة عندما يتم الاختيار كنت أختبئ رُبما لا يروني، ولكن بعد هذه الليلة لم أختبئ، كنت أجلس في المُقدمة أنتظر أن يأخذني، الجميع يَظن أنه لن يفرط في رائد الصغير الذي لا يَعلم شيء، ولكن ما بالِ الظنون حول كارم الذي لا نعلم له مكان.

كنت أنتظر وبداخلي خوف وأشياء أخرى لا أعرفها، ولكن كنت أعلم أنني عندما أخرج مِن هُنا لن أخاف مثلما وعدته، ربما نلتقي في الخارج البعيد، ربما أراه يتسكع مع إحداهِن، ربما يَبيت في أماكنٍ ليست آمنة لكنه حُر كما كان يتمنى، لا ينتظر كل ليلة أن يُحدد مصيره أحد، لا سُلطة عليه سوى نفسه.

لم أشعر بمعنى كلمات كارم سوى عندما تَركوني في العراء، كنت أفكر في بادئ الأمر هل طبيعي أن يَتركوني هكذا، الجميع هُناك أيضًا يظن أن مَن يخرج يَموت، ولكن في حقيقة الأمر أن الخارج هو الوحيد الذي يحيى وإن مات.

(٦)

ولأننا حمقى

ما زال بداخلي يُردد أن هُناك سبيل.. سبيل للنجاةِ، سبيل للحياة مرة أخرى، أنا هنا خلف القُضبان حيث لا حياة، فقط تحملق في الظلماتِ، تسمع هسيس الأشياء، صوت أنفاسك عالي، تنفصل عن الدنيا وكأنك بمفردك - رغم التكدس -، في لحظةٍ ما لا تَشعر بأي شيء حينها أهرب من سجني وأعيش في أفضل مكان بالعالم، هناك أمي وأبي وزوجتي وأطفالي، أعانقهم ويعانقونني، أتنفس هواءً نظيفًا لا يختلط به روائحًا مقززة، أحيا بِحُرية وأُحلق حتى السماء السابعة، وفي لحظةٍ واحدة يعود كل شيء وأجد نفسي في المساحةِ الضيقةِ ذاتها، أتنفس بصعوبة وأُحملق في الظلام.

هنا.. نعيش ببطء ونموت ببطء، حياة سينمائية.. حياة ليست عادلة أبدًا.

عندما يتسرب ضوءً من نهارٍ – وهذا نادر – نتنفس أملًا، نضحك كالمجانين معتقدين أن الموعد يقترب؛ سنخرج لا محالة، سيأتي ذلك اليوم وسيخرج أيًا منا في اللحظةِ القادمة، وإن حُكم علينا البقاء المؤبد، لكن يظل هناك أمل يأتي مرة واحدة كالضوءِ الذي لا نراه ونَسيته أعيننا، ولأننا حمقى نتأمل عبثًا، نحن المَنسيون هُنا، دُفنت الآمال والأحلام وكرامتنا، ودُفِنا ونحن أحياء.

تلك الورقة وهذا القلم الذي بيدي أحيا بهم، وتلك الكلمات الميتة تُشعرني أنني حي، هُنا كنت أُحادث أمي قبل أن تُفارق الحياة، ثم أرثيتها بعد أن جاءني خبر وفاتها ولم آخذ عَزائها، لم أحمل نعشها، فقط أُرثيها على ورقةٍ فارغة ملأتها دموعي، وصوت نحيبِ وصراخي، انكساري ومَسبتي للحياة يَسمعه الجميع، بكوا معي.. منهم مَن كان مكاني قبلًا، ومنهم مَن يخشى الوقوف مكاني.. قُطع صوتي وهَدأ قلبي وغَمِض جفني، علها تزور أحلامي – هكذا تمنيت –، وكالعادةِ أتت تَربت على كتفي؛ فبكيت في عُنقها.. عويتُ كالذئبِ الجَريح أقول:

"دثريني يا أمي، قبليني يا أمي، ضُميني يا أمي قبل أن يَضمَّكِ الثَرى".

آهٍ يا أمي ابنكِ قد كُسِّر، ذُّل وهَان، كنتَ مُقلة عينكِ وحبة الفؤاد، دمروا غزالكِ الشارد، ذبحوني يا أمي وتَركوا الجُرح نازفًا، آهٍ يا أمي وآه.

كان هذا الفصل الأول وانتهى، عُدت لأوراقي بعد رثاءٍ طويل ومرارة لن تنتهي، أتخيل الحبيبة التي لم ألتقيها، أُحادثها وأشكي لها همي، أتخيل دِفئها على قلبي، أتخيل ابتسامتها فتكون دواءً.. حينها تُنبت نبتة أمل صغيرة كشعاعِ الضوء الذي لا نراه.

يَصرخ سجاني ويُنادي: "مات أبوك يا مَسجون" فتموت النبتة في صدري كصاحبها المقهورِ، المقسومِ ظهره.

لا أبكي، لا أصرخ، لا رِثاء في الورقِ يحكي، قلبي مات.. كُلي متجمد.

يقترب صديقي في الموتِ يَقول:

- شَاب شعرك يا يحيى!

فأقول:

- أين يحيى وأيِّ يحيى؟

مات يحيى.

يَصمت فليس هُناك ما يُقال، هو أقدم مِني في الألمِ وأعلم، لا يَحكي لي أملًا كاذبًا، لا يَنسج قصصًا تُروى ولا تُرى؛ فنحن نموت نموت ولا نخرج.

مات الحاج إسماعيل ولم يخرج، مات العم سامي ولم يخرج، ومات شهاب صاحب السبعة عشر عامًا ولم يخرج.

صراخنا لا يكفي أن يجلبوا لنا دواءً، بكائنا لا يكفي كي يذهبوا بأحدهم إلى طبيبٍ، جميعنا لا نكفي لشيء.

نُسينا ولا يتذكرون مِنا سوى الأرقام، أنا رقم، والحاج إسماعيل كان رقم، والعم سامي رقم، وصديقي هذا رقم، كلنا أرقام مؤجلة للموتِ.

لا نعترض على الموت، ولكن لا يحق لنا الموت في بيوتنا، لا أهلينا يرونا قبل أن نموت ولا نراهم.

أنا هُنا.. يحيى الشاب الذي مات قهرًا وظلمًا، ماتت أمي فمات قلبي، مات أبي وشاب شعري، قُسم ظهري كأني كهلًا، لم ألمس وجه حبيبتي، أتنفس قهرًا وأعيش قهرًا حتى الموت.

وُجدت تلك الرسائل في متعلقات يحيى الشخصية بعد تسليم جثمانه لذويه وتسليمهم إياها.

(٧)

وكُسرت المرآة

إمكانية العيش مع الألم لم تكن خيارًا أبدًا، ولدت بالألم وأتعايش معه.. جزءً مِني، أنا وهو لا ننفصل، الجميع يرحل إلا هو باقي، الجميع يجد الجميع وأنا وهو لم نجد سوى بعضنا البعض.

أُحادثني أمام المرآة كل يوم، أتأمل الشقوق بروحي، أتأمل عبث الأيام معي، أحاول تحريك ذراعي، ولكن لا يتحرك، هنا تمامًا أعلم أن لي يومًا جديدًا مع الألم.

من نافذة غرفتي أتأمل السماء، أحلق بها لساعاتٍ طويلة وأنا أُراقب الطيور، أُراقب رحلاتها وذهابها وإيابها، جلوسهم فوق الأشجار الذي لا يتعدى دقائق، يشتاقون للحرية سريعًا؛ فيُحلقون من جديد، أَنظر لذراعي ولنفسي ثم أعاود النظر للسماءِ بعيونٍ دامعة، ربما تَمر حياتي وأنا بجانب النافذة أنظر للطيور هكذا وأغبطها.

تقول لي أمي أن حياتي ستفنى وأنا أقف هنا، أما أنا فلا فرق عندي.

ذات صباح رأيت حمامة جناحها مكسورًا تنام هكذا على جذع شجرة، يأتي رفاقها بالطعامِ ويُحلقون مجددًا، كانت مسكينة متألمة تُحاول اللحاق بهم ولا تستطيع، يبدو أنها تَشتاق الحرية، تَشتاق التحليق عاليًا وإن كان جناحها مكسورًا.

نظرت للمرآة ولنفسي؛ فبكيت ضعفي.. أعجزت أن أكون مثل تلك الحمامة؟

أهرب مِني ومن العالم أجمع، أقبع هنا أمام المرآة، أتطلع للعالم من نافذتي، أرى طيف الحرية أمامي في الطيور الطائرة، أبتسم ألمًا.. أنا مَن حَبست حُريتي ومنعتها.

ذات صباح لم تُشرق شمسه، سماء ملبدة بالغيومِ تُنذر أنها ستُمطر باكية.

كنت خائفة، الطيور لا تطير والرياح شديدة، كنت أشعر أن أنفاسي تُسحب ببطء تحركت بهوجاء فكُسرت المرآة، جَمدت في مكاني لدقائق وكأن عقلي لا يستوعب ما حدث، تناثرت القِطع المهشمة أرضًا في كل مكان فبكيت، بكيت كثيرًا وكأنني أرى قطع روحي هي المهشمة، وكانت روحي المنزوية ترتعش كقطةٍ بللها المطر، وكأن صديقة عمري – المرآة – خسرتها في تلك اللحظة.

تعريت روحي.. أنا التي هَربت من نفسها سنواتٍ طُوال، كأن غطاءً ثقيلًا انزاح من فوقي في ليلةٍ شتوية باردة، كلما هربت بنظراتي في أي اتجاه أرى نصفًا مِني.

كنت أقف أمام المرآةِ وأتوارى، أرى نصفي وكأنني خُلقت نصفًا، أعيش بأنصافِ الأشياء دائمًا، روحي تهفو للطيرانِ بينما هي حبيسة أربعة جُدران، نصف وجهي أخشى النظر إليه لدرجة أنني نسيت كيف يبدو ولِمَ أخشاه وأخشى رؤيته، كُسرت المرآة كذراعي المنزوعة منذ صغري، وقدمي القصيرة التي تجعل قامتي غير مستقيمة، ثغرات

روحي جعلت مِني حبيسة سجن صنعته بألمي وبالكلمات السامة التي وجهتها لنفسي.

غريبٌ حالي وغريبة أنا، نظرات الشفقة لم أستطع الاعتياد عليها – ومَن يَعتاد؟ – لكنني كنت أترجمها داخل عقلي كسهامٍ مسمومة صُوبت ناحية قلبي؛ حتى إن تلقيت دعمًا كنت أشعر بثقلٍ في قلبي وفراشات تتطاير في معدتي، تموت الفراشات سريعًا ويتغلب ثِقل قلبي على كل شيء، أقول لنفسي يا لكِ من مسكينة.

أعود لغرفتي أُراقب الطير الشارد، وأنظر إلى نصفي في مرآة.. أما الآن كُسرت المرآة وكُسر معها خوفي وضعفي، الآن أنا في حديقة كأنها قِطعة من الجنة، أنظر للطيور المُحلِقة ولحريتها، لا أغبطها.. لأنني أيضًا حرة؛ ولأنني أيضًا أُحلق في الأراضي وأبتسم.. تهفو روحي وتتطاير الفراشات في معدتي ولا تموت.

(٨)

الرَمَقِ الأخير

تتهادى، تَنفث في دُخانِ محرقةٍ لا تعلمها، جاهل أحمق يطوف الأرض، تتجول عبثًا، تضحك بدون أسباب، تتقهقر لأنك لم تجد ما تود، تُحارب في أرضٍ غير أراضيك.

كل هذا عبث، كل هذا نزيف عُمر ووقت ضائع بِلا جدوى، مسكين تظن نفسك تَطير تُحلق، ها أنا أنجح.. ها أنا أمشي على الأشواك كي أَصل، ها أنا أُردد الهِتاف وأنثر الأمل، الحب بلا سبب، أنا رائع.. أحبوني، شاهدوني أنا هُنا، أنا أفعل أنا أذهب وأفعل وأفعل، والواقع أنك مسكين لا تفعل أي شيء، هباءً منثورًا يضيع وقتك.

تفنى الحياة ونحن هكذا عِباد الله، نركض خلف رماد، نركض نحو الأمل المزعوم، كم ربيعًا ضاع، كم خريفًا مر، وكم نحن بؤساء ننسى الهدف سريعًا.

صعوبة الأمر تكمن في المعرفة وعدمها، إن كنت تعلم وتتجاهل فذنبك مُضاعف! وإن كنت على غير علمٍ وتَسير هكذا بلا هَديٍ ربما ذنبك أخف، وربما تُسأل أيضًا لماذا لم تحاول وتبحث.

السؤال الأعظم والأصعب والذي يتجلى أمامي الآن "عن عمره فيما أفناه؟"

أَتُدرك صعوبة السؤال؟

أتدرك ماهيته وتفكر في إجابة، الأصعب من كل هذا أنه حينما نفكر تكون الإجابة صفر، لم أفعل شيء.. كلها محاولات عَرجاء وربما مُصابة بشللٍ، أنا وأنت وجميعنا سنسأل لماذا لم نفعل هذا وذاك، لماذا فعلت هذا وذاك.

في الحقبةِ الزمنية السريعة هذه، في خِضم المعرفة السهلة والتيسير في كل شيء ما الذي يمكن أن نتخذه درعًا ووسيلة دفاع صماء!

بحقِ الله ما الذي يمكن فعله في هذا اليوم، والإجابة المعلومة أننا لن نفعل شيء، مَن فعل فقد فعل سابقًا، أما تلك اللحظة هي لحظة حِساب نسيناها.

بئس العبد أنا، بئس الفعل ما فعلت، بأي قلبٍ أذنبت أنا؟

أواه إنه يوم لا ينفع الظالمين ندمهم، وأثقل ما نخشاه أن نكون ظالمين أنفسنا.

وحقيقة الأمر والمُبعث بالأمل أنه هُناك فرصة، فرصة خَفية بها قبس نور، هُناك فرصة حتى الرمق الأخير أن ننجو وألا نكون من القوم الظالمين أنفسهم.

(٩)

أشباه مجانين

عندما تتشابك الأَيدي تتناحر العقول، تَظن أن قلبك يطير بلا جناحات، يتراقص بدونِ موسيقى مكتفٍ بصخب دقاته، يَدُّق يَدُّق.. يَدُّق كثيرًا وسريعًا كأنه موسيقى تتسارع ويتعالى الصوت، والأَعين مُتلاحمة في اِنسجام مثل خطوات الرقص تمامًا؛ حتى وإن كانت مرتنا الأولى بالرقص.. بالحبِ ننسجم وتتآلف الخطوات، نتمايل في عذوبةٍ وشجن، وكأن الحياةَ تُشِع أملًا وحُبا.

ضحك فتناثرت الصورة العذْبة أمامي ولمَّا تزايدت الضحكات سُخريةً.. شعرت كأن مِلحًا أُجاجًا صُب في مخيلتي وأصبحت العذوبة مياه راكدة عَفنة، ظل يضحك ويضحك وكأن هِيستيريا أصابته، وقفت مقاومة ارتعاش جسدي أحاول الابتعاد عنه، كلما ارتفع صوته اِرتعشت أكثر وكأن كهرباء مَستني.

صرخت وإن كانت صرختي بلهاء مرتجفة مِثلي:

- توقف.

فتوقف حقًا، نظراته التي كانت تَدور مثل المجانين ثبتت على ملامحي المُبهمة، صابت نظرته قلبي الهَش الأبله، ابتسمت كالسقيمِ وكأن الأمل غزا عقلي، روحي وقلبي.. فقط نظرة!

اقتربت منه أكثر بعدما كنت أبتعد، كان منزوٍ منبوذ لا يُعجِب الناس، مساكين لا يعرفونه.

جلست أرضًا على البرودةِ معه، ظللنا هكذا ربما لساعاتٍ طويلة فنحن لا عِلم لنا بالزمنِ ولا مرور الأيام، إن مرَّ فنانٌ من هنا لتأملنا.. كنا مثل لوحةٍ بديعة لم يخطها رَسَّام، أنظر له وينظر لي، بيننا مسافةٍ محسوبة بغيرِ حِساب، بيننا حديث صامت لا يفهمه سوانا.

لكنني مللت الفن وزهدته فوجدتني أُحدثه، حقيقةً قررت أن أُحدثه، ولكن لم أجد للحديثِ سبيلًا، كلما قررت الكلام تَسربت الكلمات مِن ذهني وكأنها سُرِقت مِني وأُخِذَت أخذًا.

وهُنا تمامًا عندما سمعت صوتًا بعيدًا يقول: "مسكين هذا الفتى"، عَرفت السبيل وسلكته حينما قلت:

- مَن قتل روحك لتصل إلى هُنا؟

حينها حرك عينيه كثيرًا، لم يُعاود النظر إليَّ وعاد الصمت رَفيقًا وَفيًا للمرةِ الألف.

لملمت ما تبقى من أثري وضممت رجلي إلى صدري، ولمَّا جئت أميل برأسي عليهما تَجلى صوته البَهي يقول:

- قتلت نفسي.

حينها عادت النظرات ودارت بيننا من جديد، قلت في سهولةٍ عن ذي قبل:

- لِمَّ يا فتى؟

صحح لي:

- عابد.

قلت:

- إذًا.. لمَّ يا عابد؟

لم يَقل شيئًا وما وددت الزيادة، كأنني أشتاق للصمت، أو ربما أهرب من إجاباتٍ لا أعلم مصيرها إن سمعتها.

وضعت رأسي على رجلي وحلقت الفراشات فوق رأسي، أحلام فوق أحلام اُقتبست من اِسمي، أحلام تَحفها الوُرود وتُزينها فراشات سعيدة ورائحة عطرٍ شذي.. ليس عِطري ولا للورودِ شأنٍ به، يظهر الأمير وسيمًا كما المعتاد، يلمس الورد ويأخذ يدي للرقصِ سويًا، تلك المرة تحدث الوسيم يقول بصوتٍ رخيم:

- نلتِ قِسطًا وافرًا من اسمكِ على عكسي تمامًا يا أحلام.

يعلم اسمي ويُخاطبني به، كأنه خرج من أحلامي هُنا تمامًا.

- عابد لم يكن يومًا عابدًا، لا شخصه ولا حتى ما تمناه مَن حوله، ربما أحلامه كانت أوسع مما يتحمله العالم، وربما كان هو الأقل في كل شيء ولا يدري، ظن بنفسهِ الرُشد والبلاغة، العقل السديد وشِدة التدبير، يُفكر في كل صغيرة وكبيرة؛ حتى أصبح مسكينًا منبوذًا لا يتذكر سوى اسم وملامح مطموسة، لا أحلام، لا ذكريات، لا حاضر ولا مستقبل، جثة تنزوي بجانبٍ لا يَشغل حيز من غرفته حتى، الداني والقاصي ينظر لي بعينِ شفقة ويرحل سريعًا كأنني وباء منتشر، يا ليتني حتى وباءً.. لكن كونك لا شيء سوى اسم.. يعني أنك مُجرد رقم، وربما صفرًا ليس له أي قيمة.

وددت لو أقول له كم حلمت بهذا الرقم، أن يكون نصفي ودليلي، أن يكون معي فقط ولو لليلة، وأن هذا كله ما جعلني هُنا مع أشباه المجانين ولم أكن منهم، لكن قرر الجميع أن هُنا مكاني، وأن انتمائي

لهذا المكان أفضل للجميع مِن وجودي بجوارهم جثةٍ تتحرك بدون أي شيء، لا مشاعر، لا تفكير ولا أي تقدم للأمام، عبئًا ثقيلًا وتخلصوا منه، وددت لو أنني بجراءتك يا عابد وتفوهت بكل هذا مثلك، لكنني مجرد جبانة حالِمة.

سَكت صوته وابتعدت أنفاسه التي كانت بِقربي، كان يظنني نائمة.. رفعت رأسي ببطءٍ وجدته يبكي، تأملته في صمتٍ واحترمت عزاؤه نفسه، ولمَّا انتهى عَاود النظر لي، نطقت حينها بما جاء في خاطري:

- هل تَرقص معي؟

نجحت ورأيت الدهشة تَطل مِن عينيه، رأيت تعبيرًا مختلفًا له أخيرًا، قلت مفسرةً له طلبي:

- كنت تقول أن لي نصيبًا من اسمي، هذا لأنني أعيش بأحلامي لكنني لم ألمسها من قبل، ربما يكون سخيفًا بعض الشيء بالنسبة لك

ولِمَ كنت تقول منذ دقائق، لكن هذا حلم ربما إن حققته أكون نِلت شيئًا ما مما تمنيته.

وقفت مِن مكاني وبدأت أتحرك وأتمايل، أغمضت عيناي عن الحقيقة وعن كل الحياة، تَمايلت على الموسيقى في رأسي ولمَّا شعرت بأنفاسهِ مِن حولي سمعته يقول:

"الذين رُءوا وهم يَرقصون كانوا معتوهين في نظرِ الذين لم يستطيعوا سَماع الموسيقى".. فريدريك نيتشه.

حينها فتحت عَيناي ونظرت له وجدته يَرقص معي، ضحكت كثيرًا وأغمضت عيناي مجددًا فسمعت الموسيقى، ورُحت أتمايل معها والفراشات من حولي وورودٍ تَتمايل معي ورائحة عِطرهِ الشَذي تَلفني.

(١٠)

خافت الصوت منهزم

عبثًا أتلافى خوفي وأُجاهده، حرب غير متكافئة وعدوٍ يُتقن أساليبيَّ المملة في الدِفاع، أتدري معنى الحرب على نفسك يا عادل؟!

صدقني أنا أحاول كثيرًا ولكن كل محاولاتي تموت في رَحمِ التفكير، كأنني أتسلق جبلًا شاهق وكلما صعدت أجد في النهاية أنني لم أتزحزح، أنه شُبه لي وصدقت خيالاتي.

أعيش حياة طويلة متكررة، لا جديد بها، لا حركة ولا أي شيء، ربما الشيء الوحيد المتجدد كُرهي للحياة وسخطي، وجميع ما يؤلمني هو ما يتكالب عليّ يومًا بعد يوم.

أعرف جيدًا قيمة الكلمات التي تُرسلها لي، أتعلم.. سَأُخبرك سرًا الآن أنا أنتظر رسائلك اِنتظار الغريق، أقول ربما حرف مِن أحرفك ينجدني مما أنا مُقدم عليه.

في كل مرة أَبث إليك همًا وأنتظر مواساتك، أما اليوم أُبلغك قرار أعلم أنك ما إن تبلغه ستتحرك وتثور ثورتك، ستركض في الطُرقات كي تصل تُمَّني نفسك باللحاق، لكن يا صديق الأيام أقول لك من الآن لا تفعل، ولا تُحمِّل نفسك الإثم.. أظنك فهمت مُرادي، وأعلم جيدًا أنك لن تنساني، ومع ذلك أقول لك.. لا تنساني يا صاحبي.

"عادل"

لم أُدرك معنًا لألمِ الفقد رغم كثرة تشبيهاته، الآن فقط حينما قرأت حروفك المؤلمة يا صالح فهمت، فهمت كيف يشعر الإنسان بالتيه والعجز، ربما آخر كلماتك أوصيتني ألا أفعل، ولكني فعلت، الآن في الطريقِ أكتب حروفًا لا أعلم مَن سيقرأها.. لكنك تعلم أنني لا أستطيع التنفس إلا على الورق.

تقول أن التمني سيصيبني، لكنني الآن أتأرجح بين الدعاء واليقين في عظمة الله، أسأله المُعجزات وأعلم أنه صاحب المُعجزات وصانعها.

أدعوه بيقين الأولين، وأنظر للطريق ربما تَقصر المسافات عندما أُطيل النظر، ربما تَخجل من الألم داخل عيني، ربما القطار يطير وأصل وتتحقق المعجزات.

لا أخفي عليك شعورًا تملكني الآن لمَّا رأيت القرية، وكلما اقتربت من منزلك أخشى المشهد الذي أُنكره.

- هذا أنت حقًا ولا أتخيل!

أغمضت عيناي عندما سمعت صوته من خلفي، تحققت المعجزة واستجاب الله.

ببطءٍ التفت إليه، وأول ما وقعت عليه عيناي ضمادة يده، عانقني سريعًا واجهش بكاءً لا يليق بمثلهِ في مكانٍ كهذا، شددت من عناقه حتى هَدأ.

سِرنا في هدوءٍ حتى مكاننا المُفضل، ظل الصمت رفيقنا الثالث حتى قلت:

- تحققت المعجزة.

تساءل بعينيه؛ فقلت:

- كتبت لي أن التمني سيصيبني، لكنني طلبت من الله معجزة وحدثت.

كان هادئًا غريبًا وكأنه ليس صالحًا الذي عهدته سنين وأيام، قال أخيرًا:

- كانت معجزة حقًا، لم أتمنَ أن تحدث، ولكن الآن أدعو الله في كل وقت كي يغفر لي، أحمده أن هذا ما حدث.

سألت:

- ما الذي حدث؟

سحب أنفاسه بعمق، قال وهو ينظر إلى السماء:

- كالذي عاد من الموت، هذا ما حدث يا عادل، بعد كتابة الرسالة إليك وقبل أن أُرسلها فكرت كثيرًا وحاولت كثيرًا ألا أفعل، لكن لم أستطع السيطرة على أفكاري وغضبي من كل شيء حولي، شعور واحد فقط مُسيطر يا عادل.. المَقت الشديد لكل شيء، لا أرى سوى ظلامًا حالك السواد، لا أرى سوى ظلم وقهر وصوتٍ خافت منهزم، لا يقوى على فعل أي شيء.. شعرت أنني لا أملك أي شيء، أعيش بلا هدف، بلا أحلام، بدون أبسط الأشياء.. أبسط الأشياء يا عادل لا تحدث؛ حتى وجودك هُنا بجانبي كالآن لم يكن يحدث، تركت الرسالة في صندوق البريد وفعلت ما فعلت.

صمت بعدها وظلت عيناه مثبتةً على السماء، تتساقط دموعه كالمطر، قلت بهدوء:

- ماذا بعد يا صالح، أخبرني؟

مسح عيناه وقال بصوتٍ يُخالِطه البكاء:

- شعرت بالدماء تتدفق والدُوار أسقطني أرضًا، كنت أهذي بدعاء لا أتذكره حتى فقدت وعيي، استيقظت في المشفى.. والحال أن مَن وجدني بعض الصِبية كانوا يلعبون بالكرة وسقطت عندي، رأوني وهم يحاولون استعادة الكُرة وركض أحدهم إلى المستوصف، ولُحسن حظي وجدوا طبيبًا هو مَن عالجني، هذه هي معجزتي يا عادل.

عانقته حتى هَدأ وطال الصمت مرة أخرى، كنت أعلم أنه يحتاج الوقت كي يستكين ويَطيب ألمه، وجدته يقول فجأة:

- حينها فقط أدركت معنى الحياة، وأن الله أعطاني معجزة بالفرصة الجديدة، لا أقول لك أن الحياة الآن رائعة وردية، لا تزال كما هي ولكن...

صمت كأنه يستجمع نفسه، أو ربما يجمع شجاعته؛ حتى قلت له:

- ولكن ماذا يا صالح؟

- لكنني قررت أن أنظر إلى الأمر من ناحية أخرى، أن أُعد نعمة الله عليَّ جميعها وأعرف قيمة تلك الفرصة جيدًا؛ حتى وإن كانت حياتي متخبطة بيم الآلام وانعدام الفرص، لكن الله رزقني الحياة مُبصرًا أتكلم، أذني ويدي وقدمي جميعهم في أتم الصحة، النفس الذي يخرج ويدخل يا عادل بكل سهولة، صحتي جيدة وجسدي قوي، هذه نقطة في بحر نعم الله عليّ؛ لهذا قررت أنني سأَخلق من العَدم الذي في حياتي شيء يا عادل.

فَرِّحَت وظهر هذا على وجهي وأنا أقول:

- كُنت أعلم أنك سَتصل لتلك اللحظة يا صالح.

رَبت على كتفي وقال:

- لقد كنت وما زِلت يا عادل من نِعم الله التي أنعم عليَّ بها، والله لا أنسى لك هذه اللحظات أبدًا.

تَبسمت قائلًا:

- لن أدع لك الفرصة كي تنسى.

عقد حاجبيه وهو يقول:

- ماذا تقصد؟

قلت بعدما وقفت:

- ستُسافر معي.

- لا سبيل لي معك يا عادل وأنت تعرف.

- بل هُناك، وإن لم يكن فسيكون.

نظر إليَّ طويلًا وقال:

- لماذا يا عادل وأنت تعرف أنني لا عِلم لي بالحياةِ هُناك؟

- لن أتركك مرةً أُخرى لأفكارك تَحرق بك.

الآن في القِطار السريع، ننظر سويًا من نافذة الأمل، نفكر في القادم ونتأمل في المعجزة الكبرى، الكون الواسع بشمائله وكل ما فيه، وكم لله مِن لطفٍ خَفي.

تمت بحمد الله

ريهام محمد حسن

فهرس القصص

مِن خلفِ الأضواء ٦

الصمت سيدُ الأصوات.. ١٠

قتلهم شرفي ١٨

عزيزٌ على قلبي مطعمٌ بالخطايا.. ٢٦

الخوف وأشياء أخرى.. ٣١

ولأننا حمقى ٣٦

وكُسرت المرآة.. ٤١

الرَمَقِ الأخير ٤٥

أشباه مجانين ٤٨

خافت الصوت منهزم ٥٥

اكتب رأيك وقُم بإرساله إلى الكاتبة:

لإرسال الصفحة الأخيرة والتواصل مع الكاتبة

افحص الكود التالي: